مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. العدد (٢٥)١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م. مجلة علمية محكمة. جامعة قطر

البناء النفسي للمسلم في ضوء السنة النبوية وأبعاده الحضارية

د. عبدالله محمد الجيوسي
قسم أصول الدين
جامعة مؤتة- الأردن

تمهيد

يقيم الإسلام لمشاعر الإنسان وأحاسيسه[١] وزنا كبيرا، ويهدف من ذلك كله إلى تشكيل شخصية متكاملة البناء[٢]، فالمتأمل في طبيعة النصوص الشرعية يجد أن كثيرا منها لم يكن القصد من قولها ولا من التشريعات التي تضمنتها إلا مراعاة مشاعر الإنسان وأحاسيسه، والعمل على تهدئة نفسيته والمطالبة بحفظها حتى لا يتعرض لها أو تجرح بشي، والناظر في سيرة المصطفى - صلى الله عليه وسلم- يلمس كثرة الأحداث التي تجسد حقيقة التصور الإسلامي للإنسان بعامة، وللمسلم بخاصة، فالأحداث كما النصوص قبل تنطلق من واقع التعامل مع الإنسان كيانا قائما ذا أحاسيس ومشاعر، ذا استعدادات[٣] ودوافع[٤]، ذا طموح[٥] وميل[٦]، وهذا ما توضحه الدراسة في المباحث القادمة.

---

١ الأحاسيس (Sensations) : عبارة عن عمليات حسية وعقلية تتضمن اكتشاف المثيرات وتحديدها وتقديرها والحكم عليها، وهي عمليات مصدرها البيئة الخارجية والداخلية وتعتمد على الحواس الخمس والإحساسات الباطنية الداخلية.(فرج، عبد القادر طه،موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار غريب – القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٣م، ص ٣٤)

٢ مصطلح البناء (Structure) يعني به علماء هذا الفن عملية تنظيم الأجزاء في وحدة واحدة ودمجها، أو هي انتظام وحدات الخبرة نتيجة للاعتماد المتبادل بين أجزاء الخبرة الكلية(فرج: ص١٥٥)

٣ الاستعدادات (Aptitudes): الخصائص الموجودة لدى الفرد والتي تمكنه من التنبؤ بالقدرة التي يمكن أن يتوصل إليها في مجال ما (فرج: ص ٨٨). أو هي عبارة عن إمكانية الوصول إلى درجة من الكفاية أو القدرة عن طريق التدريب، أو هو السرعة المتوقعة للتعلم في ناحية من النواحي، (زيدان، محمد مصطفى، معجم المصطلحات النفسية والتربوية، دار الشروق – جدة، ط ٢، ١٩٨٤م. ص ١٥٠)

٤ الدوافع (Motives): جمع دافع، وهو عبارة عن طاقة داخل الكائن الحي إنسانا كان أم حيوانا تدفعه إلى القيام بسلوك معين أو نشاط معين تحقيقا لهدف ما (فرج: ص ٣٤٩)

٥ الطموح (Aspiration : أو مستوى الطموح: ما يتطلع الفرد أن يصل إليه أو يتوقعه لنفسه في شتى الميادين، أو هو مستوى الأهداف التي يضعها الفرد لنفسه متوقعا تحقيقها (فرج: ص ٧٦٢ بتصرف)

٦ الميل(interest): اتجاه إيجابي نحو موضوع معين، وهو أحد الدوافع النفسية المكتسبة من البيئة وتختلف من شخص لآخر (فرج: ص ٨٢٦ بتصرف)

والإنسان في مفهوم الإسلام ليس فقط جسم وعقل؛ فهو ذو روح، ومحـــددات شخصيته تتحدد بتفاعل هذه جميعاً، وحتى يتحدد لنا مفهوم البناء، لا بد أن تـــأتي التوجيهات على أجزاء الإنسان المذكورة جميعها، ولا يكتمل البناء إن تركز علـــى جانب وأهمل آخر، والمتأمل في النصوص الشرعية يجد أنها توازن بين حاجيـــات الإنسان جميعها، وتوزعت فيها التوجيهـــات لتخاطبـــه فـــي المفهـــوم المتكامـــل، والنصوص الشرعية ترتقي بالإنسان وتتدرج في بنائه ليصبح جـــزءاً مـــن بنـــاء متكامل، فهو فرد في المجتمع، وهو جزء من حضارة، وهذا هو الذي يبـــرز لنـــا الجانب المكتمل من البناء، والإنسان الحضاري هو إنسان الحقّ والعـــدل والحـــب والرحمة، وهو محور في هذه الحياة، وهو الخليفة المخاطب، وهو الشاهد على هذا الوجود، وهو الذي كلف بحمل الأمانة، وهو المريد المختار المكلف، وعليـــه تقـــع مسؤولية تحقيق المعاني الإنسانية، ولا نستطيع فهم الإنسان إلا عندما نراه يُحـــقّ الحقّ ويُبطِل الباطل، يرفض الظّلم والعدوان على الآخرين ، ويميِّز بين العدل والظّلم فينصر المظلوم ويردع الظالم ، يواجه آلام الآخرين فيتحسّس تلك الآلام،ويشاركهم محنتهم.

يستعمل إرادته وعقله، وبهذه المعاني جميعها يمكننا إدراك المقومات الحقيقية للبناء الإنساني المتكامل الذي ينشده الإسلام، وهو البناء الذي استحق عليه لقـــب التكريم في قوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقنـــاهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء، الآية ٧٠.

المبحث الأول

نصوص تنطلق من واقع الاعتراف بالاستعدادات النفسية وميولها

ويحاول هذا المبحث أن يسلط الضوء على بعض النصوص التي يبرز فيها وضوح المنهج النبوي في التعامل مع الآخرين، فواقع التربية يشير إلى أن التربية لا تكتمل إلا بمرب يملك مؤهلات التربية، ومن أهمها الوعي[١] والإدراك[٢] للوسائل التربوية، ومن ثم التطبيق العملي لهذه الأسس التربوية، وعلى هذا الأساس كان التقسيم ضمن المطالب التالية:

المطلب الأول

النبي المربي

وردت نصوص كثيرة تشير إلى صفات النبي الكريم ووظائفه الدعوية ، وكثيراً ما كانت تمزج بين صفاته ووظائفه مما يشير إلى سمو أخلاقه، وتفانيه في مهامه المنوطة به، بحيث يصعب على قارئ النصوص إدراك ما ترمي إليه النصوص: هل تعدد صفاته؟ أم تذكره بوظائفه؟

ولعل الملفت في النصوص كلها أنها جاءت بالجمل الخبرية لا الإنشائية، وهذه بعض النصوص: (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) التوبة، الآية: ١٢٨ ، وقوله: (لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

---

[١] الوعي: استجابة الفرد استجابة إيجابية أو سلبية نحو شخص أو شيء أو فكرة معينة استجابة لها صبغة وجدانية (زيدان: ص ٣٣٣)

[٢] الإدراك الحسي (Preception): عملية عقلية تتم بها معرفة العالم الخارجي عن طريق المنبهات الحسية بإضفاء معنى على ما نحسه، وهو نوع من الاستجابة لمثيرات خارجية(فرج: ص ٦٦ بتصرف)

وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) آل عمران، الآية: ١٦٤.

فالنبي الكريم – كما يفهم من النصين– يسهم في بنائهم، ويقوم بوظيفة تربوية:(ويزكيهم) وهي التي وردت في نصوص أخرى مفصلة، كما في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) الأعراف، الآية ١٥٧. وفي الجملة الخبرية ما فيها من المعاني التربوية.

ولعلي أجمل بعض الصفات الواردة في النصوص ، وبخاصة ما يشير إلى الوظيفة النبوية المرتبطة بالبناء النفسي:

١- التزكية، فهو حريص على التدرج في تربيتهم وتهذيبهم، فالتزكية مطلب فوق التربية.

٢- يشق عليه تكليفهم بما لا يطيقون فهو مدرك لاستعداداتهم وطاقاتهم وهو المؤهل للقيام بالوظيفة التربوية:(عزيز عليه ما عنتم).

٣-حرص مصحوب بالرحمة:(حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)، وكذا التربية الحقة، فهو بمقام الأب الحريص على أبنائه، رحيم بهم

٤- قدوة للمؤمنين:(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) الأحزاب، الآية:٢١ ، فهو لا يكون كذلك إلا إذا قدم نموذجا حقيقيا، وكيف وقد أثنى عليه المولى –سبحانه– بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم، الآية ٤، وهو صريح في كون الخلق الذي أثنى عليه الله مرتبطا بسلوكه مع الآخرين، فقد كان سراجا منيرا، ولم يكن سلوكه هذا مع المؤمنين فحسب؛ بل مع الخصوم، وقد سجلت بعض النصوص ما كان يدور في نفسه تجاه الخصوم، من حرص على هدايتهم، وطول تفكير في شأنهم، قال

تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)الكهف، الآية ٦، وقال -سبحانه-: (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) فاطر، الآية: ٨ وما عتاب الله لنبيه في سورة عبس إلا من حرصه على ما يدخل ضمن هذا الباب.

ولا تقوم التربية الحقة إلا بالأسس المتقدمة: إرادة التزكية وتقويم السلوك، إدراك المربي لاستعدادات النفوس وطاقاتها وحرص المربي على التربية وإلمام تام بما يناسب المواقف التربوية من رحمة،وتشكيل مواقف القدوة.

المطلب الثاني

النبي المدرك لتفاوت استعدادات النفوس وميولها

تعددت النصوص التي توضح كون الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يدرك متطلبات النفس وحظوظها ويأمر بمراعاتها ، فالخطوة الأولى في البناء النفسي: معرفة متطلبات النفس والإحاطة بما تنطوي عليه كل نفس بمعنى اختلاف الاستعدادات والميول من شخص لآخر، والنبي الكريم كان معلما في هذا الجانب، فهو:

أولاً : يعرف أن النفوس متفاوتة والطاقات[١] متفاوتة، وكذا الاستعدادات، وفي ضوء ذلك كان يتصرف مع أصحابه، حتى إن نصوص السنة تدل على أنه كان يعرف الفروق الفردية[٢] بين الصحابة، وما أكثر ما يدل على أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يخبر كل فرد بما يهتم به، فهو كان يعطي من الأحاديث بحسب من يتحدث إليه، فقد كان يعلم في أبي عبيدة التروي، ولهذا كان اختياره له كي يكون أمين هذه الأمة، ويعرف في خالد الشجاعة

---

١ الطاقة(Capacity) : أفضل مستوى يحتمل أن يصل إليه الفرد (زيدان: ص ١٥٨).

٢ الفروق الفردية(Differences Individual): ما يميز فردا عن آخر، حيث تشمل النواحي الجسمية والعقلية والنفسية، حيث تختلف الأفراد في خصائصها (فرج: ص ٦٢٥)

والبطش ولهذا سماه: سيف الله المسلول، ويعرف في أبي بكر الصدق والتصديق فسماه الصديق، ويعرف في عمر نصرة الحق فسماه الفاروق، ويعرف في حذيفة القدرة على حفظ الأسرار، وقد كان أمين سر الرسول، ويعرف في معاذ اهتمامه بمسائل الحلال والحرام، فلقبه ب(أعلم أمتي بالحلال والحرام) ويعرف في أبي ذر زهده في الدنيا وحرصه على فضائل الأعمال فكان يذكر له من الأحاديث ما يدخل في الباب.

فخلاصة الأمر أن الرسول -صلى الله عليه وسلم – كان يختار لكل صحابي من الأحاديث بحسب رغباته وميوله في طلب العلم بمعنى (مراعاة التخصص)، ومن ذلك قوله لابن عمرو:(يا عبد الله لا تكن بمثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل"[1]، وقوله لأخ أنس بن مالك – رضي الله عنهما- : "يا أبا عمير ما فعل النغير"[2]

ثانياً : مراعاة حال السائلين، مثاله ما نجده في اختلاف الجواب الذي كان يتخيره للسائل مع أن بعض المسئول عنه واحد: " سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: « يا رسول الله! أي العمل أفضل؟ قال: "الصلاة على ميقاتها". قلت: ثم أي؟ قال: "بر الوالدين". قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"، فسكت عن رسول الله، ولو استزدته لزادني »[3].

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الصيام، ح ٢٥٧٧).
[2] صحيح البخاري، كتاب الأدب، ح (٤٩٩٩).
[3] صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، ح(٥١٣).

وعن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: « يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال: لكن أفضل الجهاد حج مبرور »[١].

وعن عبد الله بن بسر -رضي الله عنه- " أن رجلا قال: « يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: "لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله »[٢].

إلى غير ذلك من الأحاديث التي سأل أصحابها عن أفضل العمل، فاختلفت إجابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مراعاة لحال السائلين، وإدراكا منه -صلى الله عليه وسلم- أن ما يستطيعه هذا قد لا يستطيعه ذاك، إلى غير ذلك من الأسباب التي يراعى فيها حال الفرد وحاجة الأمة وقواعد الشرع.

المطلب الثالث

النبي المطبق لمراعاة متطلبات النفس واستعدادات

تظافرت المواقف التي حدثت مع النبي الكريم وبرز فيها حرصه على مراعاة شعور الآخرين والحفاظ على كيانها، فالمتتبع للنصوص يلمس أن النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- يتدرج في تربية كل فرد من أفراد المجتمع ويحرص على البناء النفسي لكل فرد؛ بل المتأمل يجد تخطيطا واعيا شاملا لجوانب الشخصية: (فكريا ونفسياً وجسمياً وتربوياً واجتماعياً) على اختلاف الموقع الاجتماعي للفرد.

نكتفي بذكر نموذج، ونشير إلى وفرة النماذج التي تدل على تكامل النظرة النبوية في هذا البناء، وهو ما يتعلق بالطفولة: فعلى مستوى الطفولة نجده المربي

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الحج المبرور، ح(١٤٦٠).

[٢] رواه الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الذبائح، أبواب الدعوات عن رسول الله، باب ما جاء في فضل الذكر، ح (٣٤٤٩). وابن ماجة وأحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم.

الواعي لحاجاتها، فالرسول -صلى الله عليه وسلم - كان يضرب أروع الأمثلة التطبيقية في التعامل مع نفسية الأطفال، من ذلك:

١- طرح السلام على الأطفال: فقد كان حين يمر بهم يسلم عليهم، وهذا له ما له من الأثر الإيجابي على نفسية الطفل.

٢- مداعبتهم وتقبيلهم فقد كان يداعبهم ويقبلهم[١]، فلا يخفى ما يتركه التقبيل من أثر في نفسية الطفل، وكذا مداعبتهم.

٣- مخاطبتهم بما يثير اهتمامهم[٢].

٤- ترك الأطفال يمرحون وتهيئة الجو المناسب لطفولتهم[٣].

٥- ولم يقتصر التوجيه النبوي على مراعاة شعور الطفولة، بل كثيرا ما كان يقوم السلوك ويوجه الطفولة إلى ما ينبغي، سواء في جانب الآداب-من احترام الكبير وتقديمه للكلام- أم في جانب تلقي التعليم، أم في جانب الاشتراك في ميادين القتال، أم في التوجيه السلوكي[٤].

---

١ يوما جاء أعربي إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – يسأله: أتقبلون صبيانكم؟ فما نقبلهم، فقال: أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة" وحديث آخر عن الأقرع بن حابس وقد كان جالسا، فقال: إن لي عشرة من الولد، ما قبلت أحدا منهم، فنظر إليه الرسول ثم قال: من لا يرحم لا يرحم" ولا يخفى ما يتركه التقبيل من أثر في نفسية الطفل، وكذا مداعبتهم" متفق عليه، انظر البخاري، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

٢ من ذلك الحديث الذي تقدم ذكره، وهو قوله -صلى الله عليه وسلم-: "يا أبا عمير، ما فعل النغير(يعني العصفور الصغير).

٣ فقد سابق عائشة في السفر وقال للصحابة: تقدموا، حتى لا يراهم أحد، فسابق عائشة. وعن عائشة رضي الله عنها: (أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -كانت عندها دمى تلعب بها- قالت: وكانت تأتيني صواحبي، فكنَّ ينقمعن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -أي: يحدث نوع من الخجل من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قالت: فكان رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ يسربهن إليّ) يدخلهنَّ على عائشة يلعبن معها. رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة: فضائل عائشة أم المؤمنين.

٤ كما في الحديث: " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع" أبو داود والترمذي والحاكم والدارقطني، وقال عنه الألباني في الإرواء : صحيح.

وفي كل ذلك من الأمثلة والنماذج ما يصعب حصره في بحث كهذا، وخلاصة القول أن مجموع النصوص في شأن الطفولة يوكد هذا البناء النفسي المتكامل[١].

❁❁❁

[١] للمزيد حول تربية الطفولة انظر: الرسول العربي المربي ، الهاشمي، د. عبد الحميد، ص ١٠٩-١٢٩، وانظر: السيرة النبوية، الندوي، أبو الحسن، ص ١٩٢ وما بعدها.

المبحث الثاني

التوجيهات النبوية في تعديل السلوك الإنساني والتحكم فيه

يهدف المبحث إلى إبراز الهدف الأساسي من النصوص التوجيهية للمسلم، فالناظر في نصوص السنة النبوية، والمطلع على أحداث السيرة النبوية يجد الكثير من الأحداث والنصوص التي ترشد المرء إلى كيفية التصرف لدى بعض السلوكيات، فالتوجيهات النبوية المتنوعة تهدف إلى:

أولاً: تبصير الفرد بحقيقة ما عليه سلوكه، وهذه هي الخطوة الأولى في معالجة أي خلل في السلوك[1]، حيث إن أول طرق العلاج لأي مسلك: أن يعلم الفرد أن سلوكه خاطئ، أما إذا كان لا يعلم أنه مخطئ، أو لا يحكم على تصرفاته بأنها غير صائبة؛ فإنه من الصعب توجيهها إلى تغيير السلوك، وهذه الخطوة هي ما تعرف عند علماء النفس بعملية الضبط الذاتي[2].

ثانياً: تبصير الفرد بخطر السلوك الذي هو عليه وآثاره السلبية، بحيث يشعر الفرد بمساس الحاجة إلى التغيير، وهذه الخطوة تقابل ما يعرف عند علماء النفس بتوجيه السلوك.

ثالثاً: التوجيه العملي الذي تتطلبه عملية تعديل السلوك .

---

[1] السلوك: كل نشاط يقوم به الكائن الحي وكل حركة تصدر عن الأشياء (زيدان: ص١٥٦).

[2] الضبط الذاتي(Self- Control): السيطرة التي يمارسها الفرد على مشاعره ودوافعه وأفعاله بحيث يكون قادرا على التحكم بها وتوجيهها وفقا لإرادته، كما يتسنى له أن يدرس عواقبها ويتحسب للمضاعفات التي قد تنجم عنها (رزوق، أسعد، موسوعة علم النفس، مراجعة: عبد الدايم، عبد الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، ط ٣، ١٩٨٧م. ص ١٥٦)

وفي الآتي بيان تفصيلي لخطوات البناء السلوكي للفرد التي تتلخص في كلمات ثلاث ، هي : ضبط وتوجيه وتعديل[١].

المطلب الأول

ضبط السلوك

في السنة نصوص كثيرة تحمل في ثناياها توجيهات للأفراد تنبههم على خطأ ما:-

- من ذلك ما يوضحه الحديث التالي: جاء معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله عنه- إلى المدينة ولم يكن يعلم أن الكلام في الصلاة قد حرم، فعطس رجل من الناس، فقال له معاوية بن الحكم : يرحمك الله، فضرب الصحابة على أفخاذهم فقال: ما فعلت؟! وهو في الصلاة ولا يدري أن الكلام في الصلاة قد حرِّم، لأنه في أول الأمر كان الكلام في الصلاة مباحا، كان الواحد يسأل الآخر ويقول: متى نزلت هذه الآية التي نسمعها الآن من الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ثم نزل قول الله عز وجل: (وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) [البقرة، الآية:٢٣٨] ومُنع الكلام. فلما سلموا من الصلاة وإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يرفق بهذا الرجل ويقول: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي كذا وكذا)[٢].

---

[١] أما الضبط فتقدم بيانه، وأما التوجيه فيكون في حال انسجام بعض السلوك للمبادئ التربوية واختلاف بعضها، حيث يتم التوجيه للجانب غير المنسجم مع المبادئ التربوية، وأما التعديل فيقصد به تصويب السلوك ليصبح موافقا للمبادئ التربوية.

[٢] رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، ح(٥٣٧)، ج١/٣٨١.

- ومنه الحديث التالي: عَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيِّ: أَنَّهُ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ فَرَدَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ: إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ[1]"، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- بين له سبب رد الهدية: لما في رد الهدية من أثر في نفسية المهدي، فكان بيانا وتوجيها يسهم في البناء النفسي.

المطلب الثاني

تبصير الفرد بمخاطر السلوك والكشف عن آثاره السلبية

عندما ينمو شعور الفرد، ويبصر بمخاطر السلوك الذي هو عليه ويحس بضرورة تغييره، حينها تكون إحدى الخطوات نحو التغيير، وهو ما يعرف بحركة التغيير الداخلي، بمعنى تحريك الدافع الذي يدعو إلى ضرورة التغيير، وهذا النهج كثيرا ما كان يحرص عليه النبي الكريم، ويظهر ذلك من خلال مجموعة من المواقف التربوية التي حدثت مع النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم-، يدل لذلك الأسلوب النبوي الذي اتبعه في تعديل السلوك، فقد جاء الشاب وقد هاجت شهوته، ورغب في الحرام، وعاد عفيفا محصنا بعيدا عن الشهوة والشبهة، وما ذلك إلا لأن النبي الكريم كان قد حرك فيه الدافع للتغيير، وأشعره بضرورة التغيير[2].

---

[1] متفق عليه، انظر صحيح البخاري، ح(١٦٩٦)، ج٦٤٩/٢.

[2] منها: عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: « إن فتى شابا أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: أدنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك ؟ قال: لا والله!! -جعلني الله فداك- قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك ؟ قال: لا والله!! يا رسول الله -جعلني الله فداك- قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله!! -جعلني الله فداك- قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله!! -جعلني الله فداك- قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم،

هذا التغيير بالنظر إلى جهة الموجه والمربي؛ فالمعروف أن هذا التغيير لا يتم إلا بالنظر إلى طرفيه، طرف المربي والموجه، وطرف الفرد المعني أو المتربي، وما يتعلق بالطرف الثاني فبيانه في المبحث التالي.

المطلب الثالث

التوجيه العملي نحو تعديل السلوك:

تهدف التوجيهات النبوية المتعددة إلى تعديل السلوك المنحرف وتقويمه، وهذا واضح في توجيهاته على المستويات جميعها، على مستوى تصحيح المفاهيم، وعلى مستوى تصويب الألفاظ، وعلى مستوى تغيير التفكير، وعلى مستوى تغيير العادات التي اعتادت عليها النفوس، وقد تعددت الطرق التي كان يسلكها الرسول – صلى الله عليه وسلم – في هذا التغيير، فمن ذلك:

١- التغيير المباشر : إفعل كذا، ولا تفعل كذا، ومن ذلك قوله لمن لم يحسن صلاته، ارجع وصلّ فإنك لم تصلّ[١]، فهو توجيه مباشر، ومنه قوله للغلام:" يا غلام: سمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك"[٢]، ومنه

التوجيه غير المباشر ، فمن هديه– صلى الله عليه وسلم– في النصيحة أنه

قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله!! -جعلني الله فداك-، قال: ولا الناس يحبونهُ لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء » رواه أحمد، انظر المسند: ح(٢٢٢٦٥)، ج٥/٢٥٦، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٧١٢/١.

١ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:"أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَدَّ وَقَالَ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ثَلَاثًا فَقَالَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي فَقَالَ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا" متفق عليه، انظر صحيح البخاري، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم.

٢ رواه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، ح (٥٠٦١) ، ج٥/٢٠٥٦.

كثيرا ما كان يتجنب انتقاد أحد بعينه، كما هو واضح من قوله – صلى الله عليه وسلم– : « ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه، فيتنخع أمامه؟ أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه؟ فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره تحت قدمه، فإن لم يجد فليفعل هكذا »[1]

٢- إرشاد الفرد إلى ما ينبغي فعله: من ذلك إرشاده للمرء إذا غضب أن يتوضأ، أو أن يسكت أو أن يجلس إن كان قائما، ويضطجع إن كان جالسا[2]، ومن ذلك إرشاده لمن جاءه الشيطان يلبس عليه أمور دينه أن يطرده بقوله: آمنت بالله

---

[1] رواه مسلم: الصحيح، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، ح(٥٥٠)، ج٣٨٩/١. ومنه ما ورد عن ابن مسعود الأنصاري، قال:" جاء رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله: إني والله لأتأخر عن صلاة الغداة، من أجل فلان مما يطيل بنا فيها، قال: فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم – قط أشد غضبا في موعظة منه يومئذ، ثم قال: "أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليوجز، فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة" صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب: هل يقضي الحاكم أو يفتي وهو غضبان، ح (٦٧٤٠)، ج٢٦١٧/٦. ومسلم:صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة، ح (٤٦٦). ومنه ما ورد في مناسبة قوله: "من أكل لحم جزور فلتوضأ ، ومنه روى ابن حبان في صحيحه عن جابر بن سمرة ، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : يا رسول الله ، أنتوضأ من لحوم الغنم ؟ ، قال : « إن شئت فتوضأ ، وإن شئت فلا تتوضأ » ، قال : أنتوضأ من لحوم الإبل ؟ ، قال « نعم » ، قال : أصلي في مبارك (١) الإبل ؟ ، قال : « لا » . قال الألباني عن الحديث صح الحديث بالأمر بالوضوء منه " . ثم ذكره من حديث جابر بن سمرة والبراء بن عازب ثم قال : " وقال ابن خزيمة : لم أر خلافا بين علماء الحديث أن هذا الخبر صحيح من جهة النقل لعدالة ناقليه انظر: تمام المنة، ص ١٠٥.

[2] عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال علموا ويسروا ولا تعسروا وإذا غضب أحدكم فليسكت وإذا غضب أحدكم فيسكت. رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات لأن ليثاً صرح بالسماع من طاووس. وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يقول أحدكم إذا غضب أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه غضبه. رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف. وعن أبي الأسود عن أبي ذر قال كان يستسقي على حوض فجاء قوم فقال أيكم يورد على أبي ذر ويحتسب شعيرات من رأسه فقال رجل أنا فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقه وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع فقيل له لم جلست ثم اضطجعت قال فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع قال الهيثمي: رواه أبو داود باختصار القصة ودون ذكر أبي الاسود ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، انظر: الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، باب النهي عن السب واللعن. وأما حديث الأمر بالوضوء فقد رواه أبو داود، لكن حكم عليه الألباني بالضعف: انظر ضعيف الجامع ح (١٥١٠).

ورسوله[١].

ففي النصوص المتقدمة ما يشير إلى كونه -صلى الله عليه وسلم- يرشد إلى طرق المعالجة، وهي طرق مباشرة، والمتأمل فيها يدرك مدى إدراكه لما تحتاجه النفس، ومدى توافق ما قدمه من علاج لهذه الحالات النفسية التي تمر بالإنسان مع ما تأمر به التربية الحديثة، وهكذا نلمس بوضوح تدرج المنهج النبوي في البناء النفسي، ولعل هذا التنوع في طرق المعالجة يكشف عن دقة المنهجية النبوية في توجيه السلوك وتقويمه بما ينبغي.

والسنة النبوية تحوي الكثير من الوسائل التربوية التي تكشف عن عمق الفهم النبوي لما تحتاجه النفس، وأسلم الطرق في معالجة ما يقع من تصرفات غير مرضي عنها.

ومما يدخل تحت هذا الباب حديث الأعرابي الذي بال في المسجد، حيث رفق به الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال : لا تزرموه"[٢]، وهذه الكلمة تدل

---

١ عن عائشة قال رسول الله: "إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله. فيقول: فمن خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه" الحديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وقال عنه الألباني: صحيح، انظر صحيح الجامع ح(١٥٤٢). ومن ذلك ما في الحديث: عن جابر أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّهُ يُضْمِرُ مَا فِي نَفْسِهِ" رواه أبو داود في السنن، باب ما يؤمر به من غض البصر ح(١٨٣٩)، وانظر: السنن الكبرى للبيهقي، كتاب النكاح، باب ما يفعل إذا رأى من أجنبية ما يعجبه، ح(١٣٢٩٤) ج٧/٩٠. ومن ذلك: عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن للشيطان لمة وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد من ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد من الآخر فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) رواه الترمذي، الجامع، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة ح(٢٩٨٨)، وقال: قال أبو عيسى حديث غريب.

٢ متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفعة في الأمر كله، ح (٥٦٧٩)، ج٥/ ٢٢٤٢. وانظر ، صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، ح(١٠٠)

على مدى المراعاة النفسية لشعور الفاعل، إذ إصل معنى الزرم، كما معاجم اللغة[1]: قطعه، والمقصود قطع بوله عليه ، فهو فيه معنى الحبس مع شدة الحاجة، وهنا ندرك مقدار العلاج النفسي الذي هدف إليه النبي الكريم، من خلال هذا النهي.

كما نجد النبي الكريم تارة يقدم العلاج النفسي لبعض القضايا التي يشق على النفس استيعابها أو الموافقة عليها، وكثيرا ما تمر بالإنسان مواقف، يجد أن ميله النفسي نحو أمر ما لكن واقعه الاجتماعي يدفعه إلى غير ما ترغب به نفسه، فكيف هي الوسيلة حينئذ؟ الجواب ما نلمسه في قصة صلح الحديبية[2] ، فالتأمل في هذه الحادثة العظيمة، يبين لنا مقدار حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم استجابته للاستفزاز، فهو وقوف عند أمر فيه سعة مع أنه يحقق للمسلمين مكاسب كثيرة، وهذا من باب النظر في المصلحتين والسعي لتحصيل أعلاهما، ولذلك جاءت النتيجة بتسمية الله لهذا الصلح فتحا، (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) الفتح: ١، ولعل في القصة التالية ما يؤكد بوضوح إلمامه -صلى الله عليه وسلم - بما تنطوي عليه النفوس، والمواقف المناسبة لاتخاذ القرارات المناسبة، ومن ذلك: عندما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام، اشترطوا أن يدع لهم اللات ثلاث سنين -لا

---

[1] انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، ، مادة زرم، ولسان العرب لابن منظور، ، مادة زرم والقاموس المحيط، للفيروز أبادي، المجد، ، مادة زرم.

[2] «... فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: اكتب: باسمك اللهم. ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله ... » الحديث ورد في صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان، ج (٢٥٥٢).

يهدمها- فأبى رسول الله -صلى اله عليه وسلم- ذلك[١]، حتى إنهم تنازلوا شيئا فشيئا إلى أن طلبوا إمهال هدمها شهرا واحدا، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم عندما طلبوا ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم، وافقهم على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم للفرق بين الطلبين، وهنا يتميز الحكيم عن غيره، وهو الذي يتنازل عن الكل أو يرفض الكل مع الفرق بينهما[٢] .

❁❁❁

[١] انظر: سيرة ابن هشام، ابن هشام، ، ج٣٢٧/٢.
[٢] انظر: الحكمة: العمر، الشيخ سليمان بن ناصر، ص٣١.

المبحث الثالث

سبل التوجيهات النبوية للارتقاء بالسلوك والتحكم فيه

يركز هذا المبحث على النصوص التي توجه الفرد إلى كيفية التصرف والتحكم في السلوك، فكثيرا ما يقع المرء أسير سلوك ما أو عادة ما، فكيف يتصرف المرء ليقوِّم سلوكه؟، وما هي السبل التي تعينه على التحكم في سلوكه؟

لكن يختلف هذا المبحث عن سابقه في أنه يأخذ بعين الاعتبار طرف المتربي، فعملية التغيير تتم لكن بإشراك المتربي في عملية التغيير والتعديل هذه.

المطلب الأول

تقويم السلوك

جاءت التوجيهات النبوية منسجمة مع خطوات تقويم السلوك المعروفة عند علماء السلوك، فالخطوة الأولى في التقويم تكمن في أن يعرف المرء من نفسه أن سلوكه غير صحيح وأنه يحتاج إلى تقويم، والغفلة عن هذه الخطوة تنمي في المرء العناد على السلوك غير السوي أو الإبقاء عليه، لكن حينما يدرك المرء أن سلوكه محط نقد الآخرين، تصبح لديه الرغبة في تغييره، بل يقوى دافع التغيير لديه، وهذه الخطوة كما لها الأولوية في هذا الباب؛ فهي كذلك في جانب التداوي والعلاج لأسقام الجسم، فالعلماء متفقون على أن أول خطوة في العلاج تكمن في قناعة المريض بحقيقة مرضه، وتبصيره بمضاعفات مرضه، ثم في قناعة بمناسبة العلاج لحالته، وإلا فلو أعطي العقاقير جميعها وكان المرء يفتقد إلى عنصر القناعة أو التهيئة النفسية فإن الفائدة حينئذ تكون محدودة جدا، ولعل من المناسب في هذا المقام أن

نستذكر حديث العسل.

ولعل ما يجده المرء من نفسه يؤكد هذه الحقيقة، فمثلا حينما يوجه شخص ما نقدا تجاه آخر في بنية جسمه- مثلا- ويقول: بأن حجمك ضخم وتحتاج إلى تخفيف وزنك، فإن المرء تقوى فيه رغبة التغيير في نمط الأكل الذي يأكله، ويتبع نظام الحمية عن بعض الأطعمة؛ لأنه يرى ضرورة التغيير ، فعلى الرغم من مشقة ذلك على النفس، وحاجة الأمر إلى الحرمان إلا أن الإنسان يسير وفق خطة مدروسة.

هذا هو الأسلوب الذي كنا نجده في كثير من نصوص السنة بفضل التوجيهات النبوية التي تهدف إلى تقوية الدافع لدى النفس، فما من شك في أن كل نفس تحمل من الدوافع الكامنة فيها ما يكفل القيام بكثير من الأمور، لكن ضعف الإرادة -أحيانا- هو الذي يقف دون التنفيذ، وما أكثر النصوص التي تكشف عن كون الإرادة إذا اجتمعت إلى الدافع ظهرت نتائج التغيير، وما قصة إسلام عمر بن الخطاب إلا تجسيدا لهذه الحقيقة[1].

---

[1] ومما يدخل تحت هذا الباب: ما ورد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ، أنَّ أعْرَابِيًّا ، جَاءَ إلَى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِيْنُهُ فِي شَيْءٍ ، فَأعْطَاهُ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : أحْسَنْتُ إلَيْكَ ؟ فَقَالَ الأعْرَابِيُّ : لا ، وَلا أجْمَلْتَ قَالَ: فَغَضِبَ المُسْلِمُونَ ، وَقَامُوا إلَيْهِ ، فَأشَارَ إلَيْهِمْ أنْ كُفُّوا . قَالَ عِكْرِمَةُ : قَالَ أبُو هُرَيْرَةَ : ثُمَّ قَامَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، ثُمَّ أرْسَلَ إلَى الأعْرَابِيِّ ، فَدَعَاهُ إلَى البَيْتِ ، فَقَالَ : إنَّكَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا ، فَأعْطَيْنَاكَ ، فَقُلْتَ : مَا قُلْتَهُ ، فَزَادَهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : أحْسَنْتُ إلَيْكَ ؟ قَالَ الأعْرَابِيُّ : نَعَمْ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أهْلٍ وَعَشِيرَةٍ خَيْرًا ، فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّكَ كُنْتَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا ، فَأعْطَيْنَاكَ ، وَقُلْتَ مَا قُلْتَ ، وَفِي أنْفُسِ أصْحَابِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَإنْ أحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ ، حَتَّى تُذْهِبَ مِنْ صُدُورِهِمْ مَا فِيهَا عَلَيْكَ . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ عِكْرِمَةُ : قَالَ أبُو هُرَيْرَةَ : فلمَّا كَانَ الغَدُ أوْ العَشِيُّ ، جَاءَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا كَانَ جَاءَ فَسَأَلَنَا ، فَأعْطَيْنَاهُ ، وَقَالَ مَا قَالَ ، وَإنَّا دَعَوْنَاهُ إلَى البَيْتِ فَأعْطَيْنَاهُ فَزَعَمَ أنَّهُ قَدْ رَضِيَ ، أكَذَلِكَ ؟ قَالَ الأعْرَابِيُّ : نَعَمْ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أهْلٍ وَعَشِيرَةٍ خَيْرًا . قَالَ أبُو هُرَيْرَةَ : فَقَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَلا إنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ هَذَا الأعْرَابِيِّ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ فَشَرَدَتْ عَلَيْهِ ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ ، فَلَمْ يَزِيدُوهَا إلَّا نُفُورًا ، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ : خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي ، فَأنَا أرْفَقُ بِهَا وَأعْلَمُ ، فَتَوَجَّهَ لَهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ بَيْنَ يَدَيْهَا وَأخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الأرْضِ ، فَرَدَّهَا هَوْنًا هَوْنًا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ وَشَدَّ عَلَيْهَا ، وَإنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ ، فَقَتَلْتُمُوهُ ، دَخَلَ النَّارَ، رواه الهيثمي في مجمع الزوائد وذكر أنه رواه البزار، وفيه متروك، وذكره العراقي في

وأحيانا نجد المرء يدرك أنه مخطئ من خلال مقابلة سلوكه بسلوك الآخرين، على قاعدة: "وبضدها تتميز الأشياء"، ولعل من ذلك ما ورد من حديث أبي هريرة في قصة ثمامة بن أثال[1].

المطلب الثاني

مجاهدة النفس لتغيير السلوك

ومن الخطوات التي تحمل المرء إلى التغيير: تعويد النفس على الشيء وتصبيرها عليه، فالمعروف أن تغيير عادة ما عند الإنسان يحتاج إلى مجاهدة ومشقة، فإذا امتلك المرء الخطوة الأولى وهي خطوة الدافع المصحوب بالرغبة، كانت الخطوة الثانية وهي: خطوة المجاهدة، بمعنى تبصير الفرد بما سيواجهه من صعوبة تجاه عملية التغيير هذه، ولا شك أن هذه الخطوة تسهم إيجابيا في عملية التغيير، فحين يعلم المرء أنه يحتاج إلى كذا وكذا يوطن نفسه لهذه التهيئة، ويكون أوفق في الحصول على نتائج تناسب الطموح، وهذه الخطوة – كذلك مطابقة

تخريج أحاديث الإحياء وقال: ذكره البزار وأبو الشيخ عن أبي هريرة بسند ضعيف، وذكره الحافظ في " الإصابة " ٣ / ١١٢ : وقال: سند هذا الحديث حسن لولا عنعنة بقية . فانظر في هذه الحادثة تجد أن النبي –صلى الله عليه وسلم- يعامل المرء بما ينبغي أن يكون هو عليه، فكأنه يخبره بأن تصرفه هذا غير مقبول وعليه أن يعرف من نفسه هذا.

[1] " قَالَ لَهُ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ قَالَ مَا قُلتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الغَدِ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلتُ لَكَ فَقَالَ أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنْ المَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلادِ إِلَيَّ وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ صَبَوْتَ قَالَ لا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلا وَاللَّهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنْ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، متفق عليه، انظر صحيح البخاري، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال. ومسلم، باب ربط الأسير وجواز المن عليه، ح(٤١١٤)، ج٤٣/ ١٥٨٩. وانظر مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، ح (١٧٦٤)، ج٣/ ١٣٨٦.

لخطوات العلاج التي يتبعها أطباء الأجسام، فبعد الخطوة الأولى تأتي خطوة مواجهة المريض بحقائق ما سيواجهه، ونجد أن المريض –حقا – يستقبل ذلك رغم مشقته، لأن التهيئة النفسية كان لها من الدور ما يكفل سلامة السير في هذه الخطوة، فمثلا قد يخبر المريض بأنه سيشعر عقب تناول الدواء بشئ من الدوخة أو آلام الرأس أو الرغبة في التقيؤ أو غير ذلك، نجده يستقبل هذه النتائج بكل يسر.

ومما يقابل ذلك في منهج التوجيهات النبوية نجد الحديث: "وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ..." [١]، ومنه حديث : الصوم للشاب[٢].

المطلب الثالث

تغيير الاتجاه[٣]

كثيراً ما كان لأسلوب الدعوة الذي كان ينتهجه الرسول الكريم مع المرء من الآثار الإيجابية التي تغير من اتجاه النفسية التي جاء بها، فقد كان يأتي المرء وفي نيته قتل النبي الكريم، فيعود وليس على وجه الأرض أحب إليه منه، وقد كان يأتي أحدهم وليس على وجه الأرض من هو أبغض من النبي الكريم ويعود وليس على وجه الأرض من هو أحب إليه منه كما في صريح قول ثمامة في الحديث المتقدم.

---

[١] الحديث بتمامه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ ثُمَّ قَالَ مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً هُوَ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنْ الصَّبْرِ" رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة ح (١٤٠٠).

[٢] الحديث عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ" صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة.

[٣] الاتجاهات النفسية(Psychological Atitudes): دافع مكتسب يتضح في استعداد عقلي وجداني له درجة من الثبات يحدد شعور الفرد ويلون سلوكه بالنسبة لموضوعات معينة حبا أو كرها (فرج ٢٤ بتصرف).

وفي قصة عفو الرسول عن الأعرابي الذي اخترط سيفه المعلق بجذع شجرة ما يجسد هذا[1] . يقول ابن حجر: ففي هذا العفو والمن دليل على شدة رغبته -صلى الله عليه وسلم- في تأليف الكفّار ليدخلوا في الإسلام[2]، وقد كانت النتيجة التي رغب -صلى الله عليه وسلم- حيث أسلم الرجل ورجع إلى قومه واهتدى به خلق كثير[3].

وقد كان من هديه في الدعوة تهيئة النفوس لسماع الكلام : فقد كان يهيئ نفوس المشركين للسماع، فحينما جاءه عتبة بن ربيعة لمفاوضته صلى الله عليه وسلم هيأ نفسه للسماع أولا بقوله : « قد فرغت يا أبا الوليد . . " قال: نعم، فقال : " يابن أخي فاسمع » وفي هذا الكلام ما فيه من تهيئة النفس للسماع ، وحين اتكأ عتبة على يديه وقال: أسمع ، أسمعه صلى الله عليه وسلم مطلع سورة فصلت.

ومما يدل على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم- يهيئ نفوس أصحابه للسماع ما رواه البخاري عن جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حجة الوداع : « استنصت الناس " فقال : " لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »[4]

فدل الحديث على أنه -صلى الله عليه وسلم- استنصت أصحابه قبل أن

---

[1] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه غزا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل نجد ، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة ، فعلق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا فجئناه ، فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتًا ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله ، فها هو ذا جالس ، ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم »رواه البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرقاع (ك ٦٧ ح ٣٩٠٥) ٤ / ١٥١٥ .

[2] فتح الباري، ابن حجر ، ٨ / ١٩٣ .

[3] للمزيد حول هذا الباب انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط١، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ١٤٢٣هـ، ص٢٤٦، الطبعة الإليكترونية الموجودة على الموسوعة الشاملة.

[4] رواه البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب الإنصات للعلماء (ك ٣ / ح ١٢١) ١ / ٥٦ .

يعظهم ليهيئ نفوسهم لسماع كلامه ، ثم حفظه ثم العمل به ، ونشره ، وقد ذكر ابن حجر حكمة عظيمة بين فيها التدرج في تلقي العلم ، وأن أوله الاستماع فقال: " قال سفيان الثوري وغيره: أول العلم الاستماع ، ثم الإنصات ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر " [١] .

ويدل لذلك قول أنس – رضي الله عنه – : « إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها »[٢]

❁❁❁

[١] فتح الباري، ابن حجر ، ١ / ٢٩٤ .
[٢] صحيح مسلم ، (ك ٤٣ ح ٢٤١٢) ٤ / ١٨٠٦ .

المبحث الرابع

جوانب تنمية النفس الإنسانية

يهدف المبحث إلى إبراز النظرة التكاملية في الهدي الذي سلكه النبي الكريم في بناء النفس المسلمة، فالبناء النفسي يضم مختلف الجوانب التي تكمن في الإنسان كالجانب الفكري، والجانب الجسمي، والجانب الاجتماعي، وستضمن المباحث القادمة تفصيل هذا الإجمال، أما فيما يخص الجانب الاجتماعي فسيترك الحديث عنه إلى المبحث الخامس، فهو به ألصق.

المطلب الأول

البناء الفكري

يقصد بالبناء الفكري: تكامل النصوص الموجه لفكر الإنسان واعتقاده بحيث تشكل في مجموعها وضوح المنهج الفكري لدى الفرد، بمعنى تنمية الفرد من الناحية العقلية، ويكون ذلك عن طريق حسن التربية، فالسنة النبوية مليئة بالنصوص التي يظهر فيها هذا التكامل، يشهد لذلك ما كان يحرص عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم– عند تعليم الصحابة من تنوع الأساليب لتتناسب وميول الإنسان، فليس جانب التلقي التعليمي للفرد واحدا في الأحوال جميعها، ولا الناس كلهم يناسبهم شيء واحد، لهذا نجد الأسلوب التربوي يراعي أحوال النفس، لأنها تمل الرتابة في الأسلوب ، كما تمل الحديث الطويل، ولعل هديه في الحديث خير ترجمة لهذه المراعاة، حيث إن السمة الغالبة على أحاديثه الوجازة والاختصار، وقل أن نجد بين الأحاديث حديثا طويلا؛ بل إن تصريحه بهذا يؤكد الهدف النفسي لتقي المتعلم، فقد ورد نْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُنَا

بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا [١].

والمواقف التعليمية تؤكد التنوع في الأساليب، فتارة التعليم عن طريق السؤال كما في الحديث المروي عن عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ ثُمَّ قَالُوا حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هِيَ النَّخْلَةُ "[٢] ، وتارة عن طريق الرسم والتوضيح كما في حديث الإنسان والأجل والأمل[٣]، وتارة عن طريق القصة ، كما في حديث الأقرع والأبرص والأعمى[٤]، وتارة عن طريق المثل: كما في حديث النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا [٥]، وتارة عن طريق التشويق، كما في حديث: لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله[٦] ...، وحديث، لأرسلن إليهم رجلا أمينا-

---

١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ح (٦٨) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الاقتصاد في الموعظة ح (٢٨٢١).

٢ أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم.

٣ الحديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ وَقَالَ هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا" أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله.

٤ الحديث الطويل المعروف، أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح(٣٢٧٧)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق ح(٢٩٦٤).

٥ رواه البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والإسهام فيه:ح(٢٣٦١).

٦ الحديث مروي عن سهل بن سعد: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ

يعني أبا عبيدة-[1].

وفي مجال تصحيح المفاهيم الخاطئة نجد الأسلوب التربوي لتقويم الموازين عند الناس، كما في حديث ميزان الكرامة الذي يرويه سهل ابن سعد الساعدي قال: مر على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجل فقال النبي: - صلى الله عليه وسلم- ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: رأيك في هذا نقول. هذا من أشرف الناس، هذا حري إن خطب أن يخطب، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع لقوله، فسكت النبي -صلى الله عليه وسلم- ومر رجل آخر فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: ما تقولون في هذا؟ قالوا : نقول - والله يا رسول الله- هذا من فقراء المسلمين . هذا حري إن خطب لم ينكح، وإن شفع لا يشفع، وإن قال لا يسمع لقوله، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا" [2]، فواضح منهج التوجيه النبوي في تصحيح المفاهيم تصحيحا عمليا، ولو تأملنا في الحديث لوجدنا أن التوجيه النبوي يلقي اعتبارا كبيرا للقضايا النفسية والخلقية، حيث لا يستقيم الميزان الذي يلتفت إلى المظاهر المادية مجردة عن القضايا الخلقية والنفسية.

المطلب الثاني

البناء الجسمي

يقصد بالبناء الجسمي: ما كان يهدف إلى تكوين شخصية تتمتع ببدن سليم تنشأ عنه مشاعر سليمة وتفكير سليم، فالمتأمل في نصوص السنة يجد الكثير من الأسس التي تدخل ضمن هذا المجال، ففيما يتصل بالحديث عن الصحة البدنية نجد

فقالَ أقاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فقالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ" راوه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، ح (٢٨٤٧).

[1] أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران ح (٤١١٩).

[2] رواه ابن ماجة، سنن ابن ماجة، باب فضل الفقراء، ح(٤١٢٠)، وقال عنه الألباني: صحيح، انظر صحيح وضعيف ابن ماجة.

أن للجسم حاجات، وأن النبي الكريم كان مدركا لهذه الحاجات، وكان يراعيها، يدل لذلك أنه حينما جاءه ثلاثة نفر من أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم– يسألون عن عباداته ويتقالونها قال الرسول –صلى الله عليه وسلم–: أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني[1]، فلهو يدرك حاجات النفس المختلفة، ولهذا كانت التشريعات الواردة في سنته تحرص على الوفاء بحاجات الإنسان ومتطلباته، وكم تحوي نصوص السنة من توجيهات نحو التربية البدنية!!، ومن ذلك تشجيعه تعلم الرماية، فعن عقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ }أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ"[2] ومنه حديث ابن شماسة أن الرسول –صلى الله عليه وسلم قال: " مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ قَدْ عَصَى"[3]

وفي مجال الأكل والشرب والوقاية نصوص عدة، ولعل من أشهرها: حديث تقسيم الطعام إلى أثلاث، عَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ"[4]

---

[1] متفق عليه، والحديث كما في صحيح البخاري: عن "أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" باب الترغيب في النكاح، ح(٤٦٤٥)

[2] صحيح مسلم، ، فضل الرمي والحث عليه، ج٣٢/١٠. ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد

[3] صحيح مسلم، ، فضل الرمي والحث عليه، ج٣٢/١٠.

[4] رواه الترمذي، الجامع، باب ما جاء في كراهية الإكثار من الأكل، وقال أبو عيسى الترمذي : حسن صحيح، وانظر النسائي في السنن الكبرى، ح(٦٧٧٠) ج٤/ ٤، وسنن ابن ماجة باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٢٢٦٥).

ومن ذلك: النهي عن الشرب في حالات معينة، كالنهي عن الشرب قائما، كما في الحديث المروي عَنْ أَنَسٍ: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَجَرَ عَنْ الشُّرْبِ قَائِمًا"[1]، وفي هيئات معينة كالشرب من فم السقاء، كما في حديث أبي هريرة: " نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الشُّرْبِ مِنْ فَمِ الْقِرْبَةِ أَوْ السِّقَاءِ وَأَنْ يَمْنَعَ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي دَارِهِ"[2]

وما أكثر التوجيهات التي تدخل ضمن هذا الباب!!، بعضها عند النوم، كالنهي عن النوم على سطح غير مسور بحجارة حتى لا يسقط عنه، ففي الحديث الذي يرويه عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ يَعْنِي ابْنَ شَيْبَانَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَنْ بَاتَ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ لَيْسَ لَهُ حِجَارٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ"[3]، وبعضها فيما يخص الأطعمة كتغطية الإناء الذي فيه الثريد رجاء البركة، كما في الحديث المروي عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا ثَرَدَتْ شَيْئًا غَطَّتْهُ حَتَّى يَذْهَبَ فَوْرُهُ ثُمَّ تَقُولُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْبَرَكَةِ[4]، ولعل أعظم ما في الباب ما ورد في الحديث المروي عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين قال:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنْ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا عَلَيْهَا

---

[1] رواه مسلم، الصحيح، باب كراهية الشرب قائما. ح(٣٨٨٦).

[2] صحيح البخاري، باب الشرب من فم السقاء، ح(٥٣٢٨).

[3] رواه أبو داود في السنن، باب في النوم على سطح غير محجر، قال عنه الألباني في مشكاة المصابيح، حديث صحيح، ح (٤٧٢٠) وفي " معالم السنن " للخطابي " حجى "، وذكره في الصحيحة ح(٨٢٨) وفي صحيح الجامع رقم ح(٦١١٣).

[4] رواه أحمد والدارمي ١٠٠/٢، وابن حبان(١٣٤٤)، والحاكم و قال: صحيح على شرط مسلم في الشواهد " ووافقه الذهبي، وذكره البيهقي في السنن وشعب الإيمان والطبراني في المعجم الكبير، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٣٩٢)، ٦٧٦/١.

شَيْئًا وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ"[١]

كما نلمس شمولية التنمية النفسية لأحوال الإنسان المختلفة طفلا وشابا وكبيرا في السن، وحتى على الوضع الاجتماعي للفرد، وموقعه منه: ابنا واخا وزوجا وأبا وعما وخالا وجدا، وكذا المرأة: بنتا وأختا وزوجة وأما وعمة وخالة وجدة. ولعل ما يوضح تنوع أشكال التنمية هذه ما نلمسه من توجيهات نبوية نحو:

- تنمية احتياجات النفس من (الطعام والشراب والكساء والمال والوظيفة..) وهو ما تقدم الحديث عنه
- تنمية الميول والعواطف من(حب النفس لـ: المال ، المدح ، الظهور والمدح ..) ، وما أكثر النصوص التي تترجم هذه المعاني الشمولية.

ولعلنا نكتفي بإيراد مثال على تجسيد التربية النبوية لما يشبع حاجة الفرد في المسألة المالية، من ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم أعطى أناسا ما زالوا على شركهم، مثل صفوان بن أمية إذ أعطاه -صلى الله عليه وسلم- عطاء عظيما ، فقد روى مسلم عن ابن شهاب قال : « غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحنين فنصر الله دينه والمسلمين ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة »[٢] يؤكد الأثر النفسي لهذا العطاء ما قاله صفوان عن نفسه: « والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي »[٣] ، وهذا هو السر في ترغيبه صلى الله عليه وسلم بعض الكفار بالمال لاعتناق الإسلام[٤].

---

١ صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب تغطية الإناء ح (٥٣٢٤).

٢ رواه مسلم ، الصحيح ، كتاب الفضائل ، باب ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم قط فقال لا ، وكثرة عطائه (ك ٤٣ ح ٢٣١١) ٤ / ١٨٠٦ .

٣ صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فقال لا ، وكثرة عطائه (ك٥ ح٥٣٧) ١ / ٣٨١ .

٤ الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ . ٩ / ٦٠ .

- تنمية غرائز الإنسان ودوافعه: فقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حريصا على تنمية غرائز الإنسانَ وتوجيهها توجيها سليما، فمن ذلك مثلا رغبة المرء في المدح والثناء، فقد جبلت النفس على ذلك، ومنه حب الظهور، ولعل فيما قاله الرسول الكريم يوم الفتح: ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن"[1] من هذا القبيل، إذ لا يخفى على أحد ما تركته هذه العبارة من أثر إيجابي في نفس أبي سفيان، فقد أشبعت نفسه مع أنها جاءت بعد قوله ومن دخل بيته فهو آمن، فلا حاجة لمن يجد الأمن في بيته أن يدخل بيت أبي سفيان.

❁❁❁

[1] انظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، ح (٣٤٣٤).

المبحث الخامس

من البناء النفسي إلى البناء الاجتماعي[١]

تزداد الدراسات الإنسانية وضوحا حينما تكون قادرة على استثمار الصلة بين الحقائق النفسية للفرد والحقائق الاجتماعية، فاستثمار الحقائق الناتجة عن الدراسات النفسية في القضايا الاجتماعية كثيرا ما يسهم في تحقيق الرؤية الشاملة والمتكاملة للحقائق الإنسانية.

والمطلع على نشأة العلوم النفسية والاجتماعية في البيئة الغربية يلمس المعاناة المنفصلة التي كان يواجهها كل فريق من الفريقين (علماء النفس وعلماء الاجتماع) ، فالانفصام الذي طال مدة من الزمن لم يكن له ما يبرره، حتى أدرك كل فريق ضرورة أن يستفيد كل من الآخر، ولعل هذه المعاناة ما كانت لتوجد لو أن أهلها نظروا في منهج التربية الإسلامية، واستفادوا من تجربتها في الجمع بين الحقائق النفسية والحقائق الاجتماعية، والأمل في هذا المبحث أن يزودنا بشيء من التكامل الذي يفضي إلى اكتمال البناء الاجتماعي بعد البناء النفسي.

يتحدث علماء الاجتماع عن البناء الاجتماعي ويشيرون إلى أنه مكون من مجموعة من الأنساق، على النحو الآتي: (نسق الأسرة، نسق الدين، نسق الاقتصاد، نسق السياسة، نسق التعليم)[٢].

لعل أول ما يلمسه المسلم في منظومة البناء النفسي للمسلم: إحساسه بأنه جزء لا يتجزأ من مجتمع ينتسب إليه، ويحرص على السعي في سبيل رقيه، ولهذا

---

١ البناء الاجتماعي (Social Structure): مجموعة العلاقات الموجودة بين أفراد الجماعة مع النظم الاجتماعية المتخصصة داخلها والتي يعتمد بعضها على بعض اعتمادا متبادلا، (فرج ص١٥٣)

٢ البناء الاجتماعي والشخصية، فرح، محمد سعيد: دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية، ١٩٨٩م، المقدمة.

فإن تقسيمات المبحث تتطلب الحديث أولا: عن أهمية الحياة الاجتماعية بالنسبة للفرد، ثم: عن خطوات الارتقاء بالفرد للوصول إلى هذا البناء.

المطلب الأول

أهمية الحياة الاجتماعية للفرد:

يميل الفرد بطبعه إلى الحياة الاجتماعية – ولا غرو– فهي جزء من بنائه النفسي، ولعلنا نجمل هذه الأهمية في الآتي[1]:

١– الطمأنينة والأمن والاستقرار مطالب أساسية لكل فرد، ولا يكتمل الإحساس بها إلا بالعيش ضمن مجتمع آمن.

٢– كثير من الأخلاق التي تشكل شخصية الفرد وتعد جزءا من بنائه النفسي لا تظهر إلا بوجود طرف آخر، مما يعني أن الفرد يعيش ضمن مجموعة تظهر أخلاقه، فالتعاون لا يظهر إلا بين مجموعة وكذا الشورى، وكذا الوفاء بالعهود، وغير ذلك من الأخلاق التي تؤكد أن الإنسان لا يزاولها إلا ضمن أفراد آخرين،

وما أكثر الآداب التي جاءت بها السنة النبوية!! وما أسمى الأهداف التي كانت ترمي إليها التشريعات النبوية! فقد كانت متجهة نحو التنشئة الاجتماعية، وقد كانت التوجيهات النبوية للفرد مراعية هذا الجانب، بل هادفة إلى إيجاد فرد اجتماعي، يحس بمتطلبات المجتمع، يدرك حاجة الكبير إلى التوقير وحاجة الصغير إلى الرفق، ولهذا كان منه التوجيه المباشر: " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا.."[2]؛ بل أبعد من هذا، فقد كان يوجه

---

[1] للمزيد حول هذا المعنى انظر: الرسول العربي المربي، ص ٣٠٥ وما بعدها.

[2] رواه أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم والبيهقي، انظر جامع الترمذي باب ما جاء في رحمة الصبيان ج٧/ ١٥٧، وذكره الألباني في الصحيحة ، ح(٢١٩٦)

مباشرة إلى التطبيق العلمي لهذا المبدأ الاجتماعي، حيث روي عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ قَالَ: انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ زَيْدٍ إِلَى خَيْبَرَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صُلْحٌ فَتَفَرَّقَا فَأَتَى مُحَيِّصَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ وَهُوَ يَتَشَمَّطُ فِي دَمِهِ قَتِيلًا فَدَفَنَهُ ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ وَحُوَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ كَبِّرْ كَبِّرْ وَهُوَ أَحْدَثُ الْقَوْمِ فَسَكَتَ فَتَكَلَّمَا فَقَالَ تَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ أَوْ صَاحِبَكُمْ قَالُوا وَكَيْفَ نَحْلِفُ وَلَمْ نَشْهَدْ وَلَمْ نَرَ قَالَ فَتُبْرِيكُمْ يَهُودُ بِخَمْسِينَ فَقَالُوا كَيْفَ نَأْخُذُ أَيْمَانَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَعَقَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِهِ"[1]

٣- الإنسان بحاجة إلى العيش ضمن مجموعة من الناس حتى يكتمل لديه تحقيق مطالبه وحاجياته من غذاء وكساء ومسكن وغيره.

٤- كثير من المشاعر والأحاسيس التي هي جزء من بنائه النفسي لا يمكن تصورها إلا إذا كان الفرد بين جماعة ينتسب إليها، ومن ذلك: إحساسه بالسعادة والتعبير عنها لا يكون إلا في جو جماعي يمكنه من نقل الشعور إلى الآخرين، من ذلك ما حصل بين طلحة وكعب.

٥- الحوار معبر أساسي يتم من خلاله نقل أفكار الإنسان وآرائه إلى الآخرين، وهذا يتم عن طريق التحادث ولا يتصور إلا بعيش الإنسان ضمن جماعة.

٦- رصيد التجربة مطلب أساسي لاكتمال بنائه النفسي، إذ الفرد معني- كما أسلفنا- بتقويم سلوكه، ولا يظهر ذلك إلا بوجوده بين مجموعة تظهر حقيقة سلوكه، وهو - كذلك- معني بالإفادة من سلوك الآخرين،

[1] رواه البخاري، كتاب الجزية، باب الموادعة والمصالحة مع المشركين على المال وغيره، ح (٣٠٢٨).

مستفيد من أخطائهم، حريص على الاقتداء ببعضهم.

٧- فيما يخص المسلم نجد أن العبادات لا يمكن تصورها إلا بالمعنى الجمعي، حتى الصلاة التي توثق صلة العبد بخالقه ، ويناجي بها المسلم ربه فيها المعنى الجمعي، ولعل في قوله تعالى: (واركعوا مع الراكعين)[١] ما يؤكد الحاجة الجماعية، وكذا الزكاة، فهي حركة في المجتمع، والصوم شعور نفسي مشترك، والحج خلطة جماعية منظمة تؤدى فيها شعائر موحدة.

٨- اعتبار بعد الإنسان عن الجماعة أحد أشكال العقوبات المتفق عليها لدى الناس جميعهم، فما السجن ولا النفي إلا شكل من أشكال الحرمان الاجتماعي، ولعل في سيرة النبي الكريم ما يجسد هذه الحقيقة، حيث استخدم سلاح المقاطعة الاجتماعية لدى بعض الأفراد – كما هو الشأن مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك- وقد كانت من أقسى أشكال العقاب، كما عبر عنها القرآن الكريم بقوله: (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم..)[٢] فالتعبير القرآني يبين الأثر النفسي لهذا النوع من العقوبات.

المطلب الثاني

آفاق البناء النفسي والاجتماعي

خطا الإسلام بالمسلم خطوات واسعة، فقد استطاع أن ينقل المسلم هماً وتفكيراً وحساً وشعوراً إلى أضعاف ما تنادي به النظريات المثالية اليوم، فقد تمكن الإسلام من زرع بذور الشخصية الإسلامية المستقلة بشعورها وأحاسيسها وهمومها،

[١] البقرة: ٤٣.
[٢] التوبة ١١٩.

وتمكن من نقلها من مجتمع إقليمي، إلى عالمية مفتوحة، كل ذلك في زمن لا يتجاوز ربع قرن، كوّن مجتمعا جديدا محوره الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد كان للرسول من الأثر النفسي ما يضمن تكامل هذا البناء للشخصية الجديدة، حيث كان هم التغيير هو الأفق النفسي الأبرز في حياة المسلمين الأولى، كيف يغيروا معالم المجتمع الجاهلي وينقلونه إلى المجتمع المثالي الذي أتت به الرسالة الجديدة، ولعل سر النجاح كان يكمن في قوة الإرادة، وقد ترجم رسل رسول الله – صلى الله عليه وسلم هذا الفهم، كما هو متجسد في مقولة الصحابي الجليل: ربعي بن عامر – رضي الله عنه – حينما قال مخاطبا رستم: " "الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نقضى إلى موعود الله"[١]،

ولقد واجه النبي الكريم مشكلات اجتماعية استطاع خلالها أن يقدم خير نموذج لعنوان التغلب عليها والخروج منها بأفق يليق بالدين الحق، والملفت للنظر أن السيرة العطرة تبرز سرعة الاستجابة للتوجيهات النبوية، ولعل منها: مشكلة التفاوت الاقتصادي التي ظهرت بعيد الهجرة، فقد استطاع التغلب عليها بعملية المؤاخاة التي كان لسرعة الاستجابة أبرز الدور في تلاشيها، ومنها: مشكلة العادات الجاهلية المتأصلة، كعادة شرب الخمر، وقد استطاع أن ينتزع حبها من نفوسهم حتى تمثلت الاستجابة الجماعية في أن تسيل الخمور في شوارع المدينة قائلين: انتهينا يا رب"[٢].

---

[١] انظر تاريخ الأمم والملوك، الطبري، باب ذكر ابتداء أمر القادسية، ج٢/٢٩٥، وذكره ابن الأثير في كتابه: الكامل في التاريخ، وانظر البداية والنهاية، ابن كثير، ج٧/ ٤٧.

[٢] روي البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الفَضِيخَ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَادِيًا يُنَادِي أَلَا إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ قَالَ فَقَالَ

والمتأمل في نوعية البناء النفسي الذي كان قد أسهم النبي الكريم في بنائه يدرك أنه من السمو بحيث لا يخفى على ذي لب مكانته، فقد صنع رجالا، وكون نفوسا تعيش لحظات من التفكير لا تتسع له آفاق الدنيا بما رحبت، ولا تستوعب كل مقوماتها احتواء التفكير الذي تنتجه تلك النفوس، فقد أصبحوا ينظرون إلى الجنة من نافذة الدنيا، ويقسمون أنهم يشمون رائحتها، ولقد أصبح السمو في التفكير يساور بعضهم ليحدث نفسه بالخوف من افتقاد لحظات السعادة التي يعيشها مع النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم– ويفصح عن ذلك للنبي الكريم: "

أي سمو في التفكير !!

وأي أفق نفسي كان يساور تلك النفوس!!

لقد كان للعقيدة التي جاءت بها الرسالة الإسلامية وظل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يغرسها في نفوس أصحابه أبرز الأثر في تكوين هذا الأفق النفسي الذي أضاف إلى نظرة الفرد حياة جديدة بمعان وموازين وأسس تختلف عن موازين هذه الحياة، حتى أصبحت النفوس ترنو إليها، وتحس أن أنفاس هذه الحياة قد تكون عائقا أمام طموحاتها النفسية، كما عبر عنها عمير بن الحمام –رضي الله عنه– يوم بدر: " لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة "[1]، ولعل ما

لِي أَبُو طَلْحَةَ اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ..." كتاب التفسير، باب صب الخمر في الطريق ج٩/ ٣٤٨ ومسلم في باب: تحريم الخمر وبيان أنها تكون من العصير، بشرح النووي ج ١٣/ ٣٤٩.

[1] من الحديث الطويل المروي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ قَالَ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ قَالَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَكَلَّمَ فَقَالَ إِنَّ لَنَا طَلِبَةَ فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَا إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كانت تتمتع به نفسية صاحب الرسالة تكشف عن هذا السمو النفسي، فقد كان يعيش أوسع لحظات الأمل في أحلك ظروف القسوة والمعاناة، وأحلى لحظات الأمن وقت أشدها أفتقاراً إلى الأمن، فما أثر عنه حين كان يحفر الخندق[1] : ".. وليهلكن الله كسرى وقيصر ، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل.."

ولعل من آفاق هذه النفس ما يتعلق بسمو نظرة المؤمن إلى ما يصيبة فقد أستطاعت التوجيهات النبوية أن تصنع من نفسية المسلم ما تجعله يستعذب الآلام والمصائب، ويحس بأنها مستقدمات أجر وثواب، يحمد الله عليها، ويحمده على أنها لم تكن مصائب في دينه، فقد كان يستهان كل مصيبة ما لم تكن في دينه، وهكذا كان التغلب على الحزن الذي يلم بالمسلم، وقد كان لتوجيهات بعض نصوص القرآن[2] ما يطمئن النفوس ويمكنها من التغلب على حالات الحزن التي هي طريق من طرق اليأس، وتوجد منها نفسا راغبة في المضي قدما.

العقيدة التي آمن بها المسلم هي التي استطاعت أن تسمو بآفاقه إلى هذا الحد، وهي نفسها التي استطاعت أن توجد نفوسا أشد طمأنينة وقت الشدة، فقد

---

١ قُومُوا إِلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قالَ يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قالَ نَعَمْ قالَ بَخٍ بَخٍ فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ قالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا قالَ فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قالَ لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ" رواه مسلم في صحيحه، باب ثبوت الجنة للشهيد.

١ جاء في دلائل النبوة : للبيهقي، باب لا يغضب اليوم أحد من شيء ارتجز به إلا..، " فلما اشتد البلاء على النبي وأصحابه نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيه الناس من البلاء والكرب ، جعل يبشرهم ويقول : « والذي نفسي بيده ، ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة ، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا ، وأن يدفع الله عز وجل إلي مفاتيح الكعبة ، وليهلكن الله كسرى وقيصر ، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل » . وقال رجل ممن معه لأصحابه : ألا تعجبون من محمد ؟ يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق ، وأن نقسم كنوز فارس والروم ، ونحن هاهنا لا يأمن أحدنا أن يذهب الغائط"

٢ كما في قوله تعالى: " ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" آل عمران:١٣٩ ، وقوله " فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم" محمد ٣٥.

كانوا يقاتلون والأمن يغمرهم، يغالبهم النعاس[1] وهم في أخطر المواقف وأشدها هولا، وهم في مواجهة عدو شرس، وما ذلك إلا عنوانا على الطمأنينة النفسية .

المطلب الثالث

الأبعاد الحضارية في البناء النفسي كما نلمحها في نصوص السنة :

في هذا المطلب نتناول بعض معالم البناء الحضاري للنفس كما تظهرها السنة النبوية[2]، حيث تبرز من خلال بناء الشخصية المتكاملة بناءا يمكنها من العيش في ظل حضارات متباعدة الأطراف مختلفة الغايات.

والحضارة ما هي إلا ثمرة تفاعل بين الإنسان والكون والحياة[3]، ولأن الحضارة الحقيقية عبارة عن حضور الإنسان عند الإنسان وتعاونه وتفاعله معه بدءا من الحضور المادي وانتهاءً بالحضور المعنوي، فسوف نتناول الحديث عن البعد الحضاري لهذا البناء المتكامل ضمن الفروع الآتية:

أولاً : بناء الشخصية الإيجابية

نصوص السنة النبوية ترمي إلى بناء فرد إيجابي في المجتمع يحس بأن كل حركة يتحركها في المجتمع نحو البناء إنما هي جزء من عقيدته، وتظل ترتقي به

---

[1] كما يسجل القرآن عليهم في الآية من سورة الأنفال:" إذ يغشيكم النعاس أمنة منه..) الأنفال ١١.

[2] تقدم في المبحث بيان المقصود بالبناء النفسي، لكن ما أعنيه بالبعد الحضاري هو ما كان له تعلق من الجانب الإنساني بالبشرية جمعاء، فالسعاة التي ينشدها المسلم تمتد لتخدم كل فرد وليست تخدم المسلم فحسب، كما نقصد أن البناء الحضاري الذي تنشده تعاليم الكتاب والسنة تسير فيه الجوانب المادية جنبا إلى جنب مع الجوانب الروحية، ولا تركز على جانب دون آخر، ومنهما تتشكل الحضارة، والعلم أساس في البناء الحضاري، فهو مرتبط بالمسخرات الحضارية من جهة، ثم بوسائل الانتفاع بها، فهي علاقة تسخير لا قهر كما عند الغرب.

[3] للمزيد حول هذا انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر – دمشق ، ط١، ١٩٨٢م.

النصوص حتى تدخل القضايا الاجتماعية في صميم عقيدته، وتتوزع التوجيهات بشكل منتظم لتضم الأحكام التشريعية كلها، فتارة تكون مندوبة: مثل إماطة الأذى عن الطريق، وتارة تكون واجبة مرهونة بإيمانه: كما في الحديث: والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل من يا رسول الله: قال: من لا يؤمن جاره بوائقه"[1]، وكثيرا ما تربط النصوص بين حركة الفرد في العبادات وحركته في المجتمع، بل إن التأمل في مجموع النصوص يوصل بنا إلى حقيقة الربط بين القضايا الاجتماعية وقضايا العبادات، وما الكفارات – التي في جلها منافع اجتماعية – إلا نوع من التجسيد لهذه الحقيقة.

ومن مظاهر الإيجابية الموصلة إلى البناء الاجتماعي للفرد، بناء علاقة بين الفرد وبين سائر المخلوقات في هذا الكون، بحيث يشعر الفرد بأنه ينتسب إلى جزء كبير من هذا الوجود، بل هو حلقة من حلقات هذا الكون، كل عنصر من عناصره يسير إلى غاية ويحمل هدفا.

وتبعد النصوص بالفرد إلى ما هو أكثر من هذا؛ فالفرد – أيا كان مركزه الاجتماعي ومهما كانت وظيفته الاجتماعية – يخضع للمسؤولية الاجتماعية المنوطة به ، والمجتمع لا يعفيه من مهامه، ولا من واجباته تجاه المجتمع، ولعل في قول النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم –:" كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " قَالَ : – وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ – " وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ

[1] في مسند الإمام أحمد، وورد عند مسلم رواية في الباب باللفظ التالي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، رواه مسلم، باب تحريم إيذاء الجار

وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ "[1]." الحديث ما يجسد هذا الواجب الاجتماعي.

فهي بهذا تخرجه من روح الاتكالية وتدفعه إلى التقدم والأخذ بمظاهر الإيجابية.

كما نلمس في توجيهات السنة النبوية ما يجعل ممن يتخذ سبيل العزلة للمجتمع نمط حياة محل نقد ولوم، ففي الحديث: " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"[2].

والمسلم مهما كان مركزه الاجتماعي مطالب بحركة تلي حركة البناء المتعلق بشخصية وهي الحركة التي لها صلة بالمجتمع، ولعلنا بمنظومة الحقوق والواجبات ندرك أن الفرد تربطه بمجتمعه منظومة من الواجبات التي لا تنفك عنه في أي من مراحله الاجتماعية؛ بل في أي من الأدوار الاجتماعية التي يلعبها في وقت ما فهو: في مرحلة الطفولة -إن كان ابناً- مطالب ببعض الواجبات تجاه والديه وتجاه من يكبره سنا، وهو -إن كان أخا- عليه من الواجبات التي تسهم في تكامل الأسرة، وهو -إن كان زوجا- عليه من الواجبات التي تسهم في تكوين الأسرة الإيجابية في المجتمع، وهو إن كان أبا عليه من الواجبات التي تلزمه تجاه زوجه من جهة، ثم تجاه أبنائه من جهة أخرى، وهكذا لا تنفك عنه الواجبات الاجتماعية التي بدورها تسهم في إبراز البعد الحضاري في منظومة البناء، بناءا متدرجا يرتقي بالنفوس إلى سلم الرقي والرفعة، وهذا ما تفتقده الحضارات المادية، حيث لا تتجاوز نظرتها المصلحة الفردية أو ما يصب في مصافها.

---

[1] الحديث عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ، رواه البخاري، في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدائن، ح(٨٥٣):

[2] اخرجه البخاري في الأدب المفرد، ح (٣٨٨)، باب الذي يصبر على أذى الناس، وقال الألباني: صحيح، انظر صحيح الجامع، ح (٦٦٥١).

ثانياً : بناء الشخصية الإنسانية

بمقارنة الحياة الاجتماعية -التي تهدف التربية الإسلامية إلى بنائها- مع غيرها من أنماط التربية السائدة، ندرك أن التربية الإسلامية تهدف إلى بناء شخصية لا تحصرها حدود المكان، فكل قطر من أقطار الإسلام يعد قطرا للمسلم ويعتز بالانتساب إليه، بل وكل زمان من الأزمان يحس برحم تصله ، فهو ينتسب إلى المؤمنين على اختلاف أزمانهم، ويحس أنه فرد من أفرادهم وأنه تربطه بهم صلة وثيقة تتطلب منه أن يقدم لهم واجباً ، حتى ولو لم يرهم ، ولعل قوله تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ربنا إنك رءوف رحيم) [1] يجسد هذا المعنى ، وهو تربطه رحم بكل مؤمن حتى قبل النبي الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم- فالأنبياء كلهم أصول لشجرة العائلة الكبيرة التي ينتسب إليها، وأتباعهم فروع لهذه الشجرة الكبيرة التي ينتسب إليها، وكذا يحس بأن أناسا تربطهم بها صلة لما يأتوا ، وهو من يأتي بعد، كل هذا يجسد المعنى الشمولي لهذه النسبة، والسمو الاجتماعي الذي تنشده الرسالة الإسلامية بخلاف التربيات السائدة؛ إذ غاية ما ينشدون أن يكون منتسبا إلى تربية بنمط معين ضمن إقليم معين، حيث لا تتجاوز طموحاتها المراحل التالية: (الأسرة فالعشيرة فالقبيلة فالعنصرية)، ومنذ عهد قريب بدأنا نسمع أصواتا تنادي بما هو أبعد، بالتربية الإنسانية، ولم يكن ذلك إلا بعد الوقوع في دعوات مذمومة إقليمية، فكانت الحاجة إلى الدعوات الإنسانية، وهي ما فتئت التربية الإسلامية تنمي أبناءها في ضوئها من أول لحظة ظهور، لكن شتان بين هذه الدعوات التي تنادي بها أنماط التربية الوضعية وبين ما تنادي به التربية الإسلامية فالتطبيق الواقعي يكشف عن زيف هذه الدعوات وافتقارها إلى عملية التطبيق، هذا فضلا عن تغير الموازين التي تحتكم إليها، وازدواجية النظرة إلى الإنسانية كما نلمسه على أرض الواقع، فالمناداة

[1] سورة الحشر/ الآية ١٠.

الإنسانية لحقوق تخص المجتمعات الغربية تختلف في موازينها وضوابطها عما يتعلق بأفراد الأمة الإسلامية، وما نشهده في واقع التطبيق اليوم أكبر دليل على هذه الازدواجية، وما القرارات والقوانين الدولية التي تصدر إلا ترجمة واضحة لهذا الزيف.

أما البناء الإسلامي فهو البناء المتكامل البعيد عن كل عنصرية وهوى وإقليمية ، ولعل الخطاب القرآني الشامل يجسد هذا البعد الإنساني، كما في قوله تعالى: (يا أيها الناس..)، أما واقع السنة ونصوصها فما هي إلا تطبيق عملي لهذه النظرة، فلو تأملنا في الثلة التي حملت لواء الرسالة لوجدنا هذا البعد الإنساني: فسلمان فارسي، وبلال حبشي، وصهيب رومي، وعلي قرشي...) ومن النساء جعل من مارية المسيحية الأصل، وصفية يهودية الأصل، وسودة القرشية أخوات،؛بل أمهات للمؤمنين هكذا إذن تشكل البناء الإنساني، وتجسد في أول أسرة إيمانية تحمل هما واحدا، وهذا هو البعد الحضاري الذي نعده ثمرة من ثمرات البناء النفسي في السنة النبوية.

وأفق أخر من آفاق الشخصية الإنسانية نلمسه، وهو أفق التسامح، أفق النفس التي تتسع للتعامل مع المخطئ والعاصي، فحديث أنس عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[1]. فالحديث يعد مفتاحا للتعامل مع الآخر وأول سلوك نلجأ إليه هو التصالح مع النفس قبل أن نتصالح مع الآخر، وإذا ما تم التصالح مع النفس ومع الآخر، تحققت الغاية الإلهية لخليفة الله في الأرض (الإنسان)، هي أن يحيا حياة كريمة وسعيدة وهانئة، ولا يتصور ذلك إلا باستيعاب الآخر.

---

[1] رواه الترمذي وابن ماجة، وقال قالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ مَسْعَدَةَ عَنْ قَتَادَةَ، ورواه الدارمي والحاكم والبيهقي، قال عنه الألباني في المشكاة: حسن. باب الاستغفار والتوبة.

ثالثاً : بناء الشخصية المتزنة المرنة :

البناء النفسي الذي تقدمه السنة النبوية فوق ما تقدم بناء متزن لا يركز على جانب دون جانب، فلا الجانب العبادي يطغى على الجانب المعيشي -كما تقدم- ولا على فئة دون فئة، فلا التركيز على مرحلة الشباب وإهمال الطفولة ولا على مرحلة الشيخوخة ونسيان الكهولة، ولا على الذكور دون الإناث، جميع أفراد المجتمع معنيون بهذا البناء.

هذا البناء المتوازن له دور كبير في حفظ الشخصية من الضياع والاختلال أو الميل نحو الانحراف، وهو ما تحتاج إليه الحضارات في هذا الزمان: خوف من التطرف، وقلق من ازدياد الجرائم والاعتداءات بأشكالها المختلفة، وقلق على أمن البشرية، ولو تأمل أصحاب القرارات في أسباب ما آلت إليه الحياة في هذا الزمان لأدركوا أن سببه افتقار الشخصية إلى هذا البعد.

ولعل ما يوضح القيمة الحضارية لهذا البعد ما قدمته الأمة من نماذج برزت فيها كل معاني التوازن والاعتدال، فقد كان المسلمون يوازنون بين حاجات الأمة الرسالية: من دعوة وجهاد.. وبين حاجاتها التعليمية في الميادين المختلفة، وهو الذي يفسر لنا سر تقدم المسلمين في مختلف الميادين العلمية.

ونحن نتحدث عن البعد المتوازن لا بد من تقديم بعض نصوص السنة التي تدعو إلى هذا التوازن: منها قوله – صلى الله عليه وسلم -:"يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" وفي رواية : وسكنوا ولا تنفروا"[1]

والحديث المروي عن أَنَسَ بْنَ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: "جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الرسول يسروا ولا تعسروا، ح (٥٦٦٠)، و ح(٦٧).

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[1]

وأما جانب المرونة - فلا شك- أنه أحد أبرز ما تحتاجه الحضارات اليوم، وقد قدمت لنا نصوص السنة نماذج رائعة من هذه المرونة، ولعل أبرزها فيما يخص علاقة المسلمين بغيرهم، وما الحوار إلا صورة من صور هذه المرونة[2]، وقد قدم لنا النبي الكريم كثيرا من النصوص التي تدعو إلى المرونة واستيعاب الطرف الآخر، وما هدي النبي الكريم فيما يخص معالجة فئة المنافقين إلا نموذجا بارزا لهذه المرونة، وقد جاء صريحا في بعض النصوص، فقصة عبد الله بن أبي بن سلول التي سجلتها آيات القرآن تجسد هذه المرونة، عندما أراد عمر أن يضرب عنقه: فأبي النبي الكريم[3]، وقصة حاطب بن أبي بلتعة أحد هذه النماذج تجسد المرونة التي كان يسلكها النبي الكريم.

---

[1] صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ح (٤٧٩٣).

[2] فهو مسهم في إرساء قواعد السلوك الحضاري، وانظر للمزيد: الحوار والفزع من الآخر، أبو زيد، المقرئ الإدريسي، مجلة الرشاد، ع ١٢، السنة السادسة، ٢٠٠١م.

[3] القصة بتمامها كما عند البخاري: عن جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ تَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا وَكَانَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ قَالَ مَا شَأْنُهُمْ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَقَالَ عُمَرُ أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْخَبِيثَ لِعَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ" باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ح(٣٢٥٧).

ولعل هذه المرونة تتجسد في خطوات العلاج التي اتبعها النبي الكريم في الحد من مخاطر حركة النفاق بالرغم من أن القرآن الكريم قال فيهم قولته الفصل، وأنهم أشد خطرا؛ لذا فهم في الدرك الأسفل من النار، وبالرغم من تكرار اعتداءاتهم التي تنوعت ووصلت إلى بيت النبوة وعرضه، إلا أن النبي الكريم يجسد لنا موقف المرونة، فقد استمروا طيلة الفترة المدنية، ولو تتبعنا العلاج الذي كان ينهجه النبي الكريم لوجدنا أنه كان يهدف إلى الإصلاح النفسي فقد كان يعاملهم بظواهرهم، رغم طول المدة التي أجلت أمرهم، وكثرة الآيات النازلة في بيان شأنهم وقد لمسنا العلاج الرباني أولا متجه إلى الإصلاح النفسي، حيث لم يرد اسم منافق بعينه في القرآن.

وخلاصة الأمر أن هذا النهج الذي سلكه النبي الكريم كان قد حقق آثاراً إيجابية ضخمة، فقد كان كفيلا بالقضاء على هذه الحركة مع تجاوز كثير من السلبيات التي كانت متوقعة، وفي هذا الإطار نستطيع فهم قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- لعمر - الذي طالما طالب بقتل المنافقين حمية لدين الله - أخيرا: « أين عمر ؟ لو قتلنا هؤلاء يوم طلب عمر لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم »[١]. ولعل هذا المنهج هو الذي أدى إلى قتلهم معنويا، من غير حاجة إلى قتل أي فرد منهم حسيا[٢].

وختاماً يمكن القول بأن البناء الذي أراده الرسول لأبنائه هو بناء محكم متكامل متوازن متدرج في الرقي والسمو، يهدف إلى بناء جيل حضاري قادر على قيادة البشرية وتسلم الأمانة التي شفقت على السموات والأرض والجبال، إنها أمانة الخلافة والتمكين، نسأل الله تعالى أن يمكن لهذه الأمة وأن يهيئ لها من يسلمها دور القيادة والريادة.

---

[١] انظر سيرة ابن هشام، ج٤/٢٥٦.

٢ للمزيد حول نهج النبي الكريم في معالجة حركة النفاق انظر كتاب الحكمة: ١/٣٤

الخاتمة

وتوصيات الدراسة

بعد هذه الدراسة التي تكونت من خمسة مباحث تم فيها تتبع المنهج النبوي الكريم في بناء النفس ، كما تم ذكر بعض النصوص التي برزت فيها هذه المعاني ، يحسن أن نخلص من البحث **بالنتائج** الآتية :

١- يقيم الإسلام لمشاعر الإنسان وأحاسيسه وزنا كبيرا، ويهدف من ذلك كله إلى تشكيل شخصية متكاملة البناء.

٢- وجود منهجية واضحة تتمثل في التدرج التربوي النبوي ، والترقي السلوكي لبني الإنسان، تهدف إلى بناء منظومة أوسع في هذا الكون.

٣- تظافرت المواقف التي حدثت مع النبي الكريم وبرز فيها حرصه على مراعاة شعور الآخرين والحفاظ على كيانها.

٤- في السنة نصوص كثيرة ترشد إلى تعديل السلوك وتقويمه والسبل التي ينبغي أن تتخذ لهذا المسلك.

٥- تكشف النصوص عن كون الإرادة إذا اجتمعت إلى الدافع ظهرت نتائج التغيير.

٦- كان لأسلوب الدعوة الذي كان ينتهجه الرسول الكريم مع المرء من الآثار الإيجابية التي تغير من اتجاه النفسية التي جاء بها.

٧- استخدم النبي الكريم شتى وسائل التعليم في سبيل بناء النفسية من الناحية الفكرية، وهو ما ظهرت نتائجه في نبوغ أتباعه في شتى الميادين.

٨- لا يقيم الإسلام للمرء وزنا كبيرا بالنظر إلى المظاهر دون حقائق النفوس، ويقيس الآخرين بموازين مختلفة عن الموازين التي يستخدمها عوام الناس.

٩- نلمس شمولية التنمية النفسية في توجيهات السنة بحيث تشمل أحوال الإنسان المختلفة ومتطلباته في شتى ميادين الحياة.

١٠- المطلع على نشأة العلوم النفسية والاجتماعية في البيئة الغربية يلمس المعاناة المنفصلة التي كان يواجهها كل فريق من الفريقين بخلاف ما هو موجود في منهج التربية الإسلامية التي كانت تسير بهما معا من أول لحظة.

١١- الأهداف التي كانت ترمي إليها التشريعات النبوية كانت متجهة نحو التنشئة الاجتماعية للفرد.

١٢- خطا الإسلام بالمسلم خطوات واسعة، فقد استطاع أن ينقل المسلم هماً وتفكيراً وحساً وشعوراً إلى أضعاف ما تنادي به النظريات المثالية اليوم، فقد تمكن الإسلام من زرع بذور الشخصية الإسلامية المستقلة بشعورها وأحاسيسها وهمومها، وتمكن من نقلها من مجتمع إقليمي، إلى عالمية مفتوحة.

١٣- كان للعقيدة التي جاءت بها الرسالة الإسلامية وظل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يغرسها في نفوس أصحابه أبرز الأثر في تكوين هذا الأفق النفسي الذي أضاف إلى نظرة الفرد حياة جديدة بمعان وموازين وأسس تختلف عن موازين هذه الحياة.

١٤- استطاعت السيرة النبوية أن تقدم للبشرية خير مثال في التغلب على أبرز المشكلات الاجتماعية التي تواجه الناس.

١٥- نصوص السنة النبوية كانت ترمي إلى بناء فرد إيجابي في المجتمع يحس بأن كل حركة يتحركها في المجتمع نحو البناء إنما هي جزء من عقيدته، وظلت ترتقي به حتى أدخلت القضايا الاجتماعية في صميم عقيدته.

١٦- التربية الإسلامية الناشئة من مجموع النصوص تهدف إلى بناء شخصية لا تحصرها حدود المكان والزمان، فكل قطر من أقطار الإسلام يعد قطرا للمسلم

ويعتز بالانتساب إليه.

١٧- كان للبناء المتوازن الذي تكفلت به النصوص الشرعية أثر كبير في حفظ الشخصية من الضياع والاختلال أو الميل نحو الانحراف ، وهو ما تحتاج إليه الحضارات في هذا الزمان.

التوصيات

يوصي الباحث بأن تقوم دراسة أكاديمية متكاملة تبحث عن منهج السنة النبوية في تكوين النفس وبنائها بناءً متكاملا.

❁❁❁

مراجع الدراسة

١ - الأدب المفرد، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٩٨٩م، تح : محمد فؤاد عبد الباقي.

٢ - البداية والنهاية، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي، مكتبة المعارف، بيروت.

٣ - تاريخ الأمم والملوك، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ.

٤ - الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون.

٥ - سنن ابن ماجة، القزويني ، أبو عبد الله محمد بن يزيد، المكتبة العلمية - بيروت، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ت.

٦ - سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث ، دار الفكر - بيروت، تح محمد محيي الدين عبد الحميد.

٧ - سنن البيهقي الكبرى،أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، مكتبة دار الباز - مكة، ١٤١٤هـ، تح: محمد عبد القادر عطا.

٨ - السنن الكبرى، النسائي، عبد الرحمن أحمد بن شعيب، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩١م.

٩ - السيرة النبوية، ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري، دار الجيل- بيروت، ١٤١١، ط ١.

١٠ - السيرة النبوية، الندوي، أبو الحسن، دار الشروق - بيروت، ١٩٨٧م.

١١ - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط٢، ١٤١٤هـ، تح: شعيب الأرناؤوط.

١٢ - صحيح البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، دار ابن كثير - اليمامة، ط ٣، ١٩٨٧م.

١٣ - صحيح مسلم بشرح النووي، النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف، دار الفكر – بيروت، د.ت.

١٤ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

١٥ - دلائل النبوة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، المكتبة السلفية- المدينة المنورة، ١٩٦٩م.

١٦ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر، دار المعرفة – بيروت، د.ت .

١٧ - الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ.

١٨ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، نور الدين أبو حسن علي بن أبي بكر، مؤسسة المعارف- بيروت، ١٩٨٩م.

١٩ - مسند الإمام أحمد، الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة – القاهرة.

٢٠ - مشكاة المصابيح، التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب، المكتب الإسلامي- بيروت، ١٤٠٥هـ، تح: محمد ناصر الدين الألباني.

٢١ - أخلاق النبي وآدابه،الأصفهاني،أبو الشيخ، دار المسلم- الرياض-١٩٩٨م ، د.ت.

٢٢ - البناء الاجتماعي والشخصية، فرح، محمد سعيد: دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية، ١٩٨٩م.

٢٣ - التعبير القرآني والدلالة النفسية، الجيوسي، د. عبدالله محمد، دار الغوثاني،- دمشق، ٢٠٠٥، ط١.

٢٤ - الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط١، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية ١٤٢٣هـ، الطبعة الإليكترونية الموجودة على الموسوعة الشاملة.

٢٥ - الرسول العربي المربي ، الهاشمي، د. عبد الحميد، دار الثقافة للجميع- دمشق، ط ١، ١٩٨١م.

٢٦ - السلسلة الصحيحة، الألباني، محمد ناصر الدين، مكتبة المعارف الرياض، د.ت.

٢٧ - صحيح وضعيف الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

٢٨ - القاموس المحيط، للفيروز أبادي، مجد الدين ربن يعقوب الشيرازي، المطبعة الميرية، بولاق، ١٩٨١م.

٢٩ - لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر – بيروت، د.ت.

٣٠ - معجم المصطلحات النفسية والتربوية، زيدان، محمد مصطفى، دار الشروق – جدة، ط ٢، ١٩٨٤م.

٣١ - المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأسفار، العراقي، زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين، بحاشية إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، د.ت.

٣٢ - منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، البوطي، محمد سعيد رمضان، دار الفكر – دمشق ، ط١، ١٩٨٢م.

٣٣ - موسوعة شرح المصطلحات النفسية (انجليزي – عربي)، الشربيني، لطفي، دار النهضة العربية – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣٤ - موسوعة علم النفس، رزوق، أسعد، ومراجعة: عبد الدايم، عبد الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، ط ٣، ١٩٨٧م.

٣٥ - موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، طه، فرج عبد القادر، دار غريب – القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٣م.

٣٦ - النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بين محمد الجزري، المكتبة العلمية –بيروت، د.ت، تح طاهر أحمد الزهاوي ومحمود محمد الطناحي.

مراجع الكترونية :

١- المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، الموجودة على الموقع الإليكتروني التالي:www.shamelah.ws.

٢- مكتبة الألباني، الإصدار الأول، على قرص مرن.

❁❁❁